

وكذا تكلم سولجنيتسين !

« والعالم سوف ينقذه الجمال ! »

دستوفسكي

لنتحدث عن الفن :

ومن الآن ، حتى لا نتوه وراء سولجنيتسين ، ويتبعنا معه ، يحسن بنا ان نحفظ ، على مرمى البصر ، بما يذكرنا دائما باوجه الشبه ، وروابط القربى ، بينه وبين تولستوي ، سلفه الكبير .

يعقد سولجنيتسين مقارنة بين نوعين من الفنانين يزودنا ، من خلالها ، بمنظور مقبول - لديه - للفن ، فيقول هناك ذلك الفنان الذي يتخيل نفسه كخالق لعالم روحي مستقل ، ويحول نفسه بعبء خلق ذلك العالم وتعميره ، متقبلا المسؤولية كاملة عنه . لكن ذلك الفنان ينهار (ه) ، لانه لا يوجد انسان فان ، مهما كان عبقريا ، يقدر على حمل ذلك العبء ، والفنان ، في ذلك ، مثل انسان العصر ، الذي اعلن انه مركز الكون ، وفشل في خلق نظام روحي متوازن لعالمه . والمحزن ان الفنان من هذا النوع ، متى امضه فشله ، يتحى باللوم على افتقار العالم الى الانسجام ، وتعقد الروح المعاصرة ، وتشتتها ، وافتقار الجمهور الى القدرة على الفهم .

وفي مقابل هذا الفنان نجد ذلك الذي يعرف ان هناك قوة عليا فوقه ، ويتقبل ذلك ، فيقبل على العمل فرحا كصبي صغير تحت التمرين ، وسماء الله فوقه ، مدركا ان هذا العالم ليس من صنعه ، وانه ليس خاضعا لمشيئته ، وانه لا توجد اية شكوك حول اسسه الجوهرية (٦) .

وحتى نقف على مفهوم الفن عنده نلقي بالا الى اوجه الخلاف والاختلاف بين الفنان الاول ونقيضه . فالاول يجعل من نفسه خالقا ، ويتحمل مسؤولية عالمه كاملة ، حتى وان انهار واصابه الجنون ، او امسك الرعب بتلابيبه ، تحت وطأة ذلك العبء . والذي يعنيه هذا الكلام ان ذلك الفنان يرفض العالم كما يجده ، ويتمرد عليه ، فيعيد خلقه في ابداعه الفني ، اي « يخالق عالما روحيا مستقلا » ، كما يقول سولجنيتسين ، ويتحمل مسؤولية تمدده وتحديه ، والعالم الذي يبده ، كاملة . حتى وان جن . حتى وان مات . اما نقيضه ، فرغم « مسؤوليته الكاملة » ، التي يقول بها سولجنيتسين ، « عن كل ما يصوره ويرسمه » « وعن الارواح التي تستوعب ما يصور » (وفي هذا التصوير للعالم كما هو يحل سولجنيتسين مفهوم الصديق محل مفهوم الواقعية) ، نقول رغم تلك المسؤولية التي يراها سولجنيتسين اعظم ، فان ذلك الفنان الاخير ، بكلماته هو ، ليست لديه الالهة

في مدخل الكلمة المتوجهة التي القاها بمناسبة حصوله على جائزة نوبل للاديب ، عام ١٩٧٠ ، افاض سولجنيتسين في الحديث عن الفن ، وقال انه هبة اعطتنا اياها في غسق ما قبل فجر البشرية ، يدان لم نستطيع ان نبرهما ، ولم تتح لنا الفرصة لنسالهما فيم اعطاونا هذه الهبة ؟ وكيف استخدمهما ؟ (١) .

غير اننا لا يجب ان نحزن لذلك . فالذي يبدو الان ، وسولجنيتسين معنا . ان الفرصة التي لم نفتحها ، اذ ذلك ، لم تضع تاماما ، واننا ما زلنا قادرين على ان نطرح ذلك السؤال . بشقيه ، ونجد الجواب عليه ، بعد كل هذه السنين .

يقول سولجنيتسين اننا اذ نمسك هبة الفن بين ايدينا . شاننا في ذلك شأن ذلك المتوحش الذي يثر على شيء لامع جميل ، فيقف حائرا به ، يقلبه بين يديه ، عله يجد له منفعة تافهة ما ، غير دار بقيمته - انسا ، مثل ذلك البدائي ، نحاول ان نستخر تلك الهبة ، وبصفاقة نوجهها ، ونجددها ، ونصلحها ، ونبيها بالمال ، ونتملق الاقوياء بها ، ونستعملها احيانا في الترفيه . بل وفي الاغاني الشعبية ، واستعراضات الكباريه ، كما نستخدمها ، في احيان اخرى ، « كسد خانة » ، او كسلح يخدم احتياجات سياسية عابرة ، او يشبع مطالب اجتماعية محدودة . غير ان الفن لا يكثر لنا ، ولا يتلوث بمحاولاتنا ، ولا يفقد شيئا من عراقة اصله ، وكل ما في الامر ، انه - في كل مرة - وكيفما استخدمناه ، يمنحنا بعضا من سره الخاص به ، فيضفي علينا بعضا من نوره الداخلي (٢) .

وهذا كلام طيب وجميل ، وبطريقة ما يعيد الى الذهن محاولات تولستوي لتعريف الفن (٣) وقت ان كان في طريقه الى الاصابة بهوسه الديني . ولو ان سولجنيتسين يتساءل (ولديه حق) « . . ولكن منذ الذي يجرؤ على القول بانه قد عرف الفن ، وعدد كل اوجهه العديدة ؟ » (٤) حقيقة انه يقول ذلك ، لكن انظر ما يقوله فيما بعد .

A . Solzhenitsyn : « One Word of Thruth .. » The (1) Nobel Speech - Bodley Head , Lodon , 1974 , p . 5

(٢) نفس المرجع السابق ، وفيما يلي من هوامش سنشير اليه باسم « خطبة نوبل » ، ص ٣ .

(٣) في كتابه المشهور « What Is Art ? »

(٤) « خطبة نوبل » ، ص ٣ .

(٥) كما حدث لنييتشه ؟

(٦) نفس المرجع السابق ، ص ٤ .

الإبصار بحدة أكثر من الآخرين : إِبصار الانسجام الذي يتصف به العالم ، وما يتصف به اسهام الإنسان في ذلك العالم من جمال وقيح ، وفوق هبة الإبصار الأكثر حدة هذه ، هبة أخرى ، هي القدرة ، الأكثر حدة ، على توصيل ما يبصره الى الآخرين . والفرق هنا فرق بين الرفض والقبول ، بين التمرد والامتثال . فالأخير مدرك لان هذا عالم لم يصفه هو ، ولا يحتكم فيه ، (والاول - بغير شك - مدرك لذلك هو ايضا ، غير ان ادراكه لتلك الحقيقة لا يمنعه من الرفض والتطلع الى ما هو اجمل واكثر انسجاما ، ومن عظم شوقه يخلقه خلقا) لكن الأخير مستلم بما يجد ، منطلق - اساسا - من الايمان « بالانسجام الجوهري » في العالم .. واما القبح والجمال (الخير والشر) فمن فعل الإنسان في هذا الكون (٧) . وبهذه الدورة الجانبية الريححة نتجنب تلك المشكلة المعثرة ، ونتجنب اليأس ايضا . لانه كان الفشل ، ومهما نزل المرء الى حضيض الوجود ، ومهما عانى الفاقة ، والسجن ، والمرض ، لا يتخلى عنه ذلك « الوعي بالانسجام » الصامد الذي لا يتزعزع في الوجود . لا يتخلى عنه ايمانه .

الايمان بان الله خير ، والعالم الذي خلقه خير .. ومحاسن تاما . فهو عالم مفضل على كماله وانسجامه ، ويبدو كما لو لم يكن فيه مجال للإنسان بما يقحمه عليه من شر ، لولا الفن الذي من خلاله يخالق الإنسان الجمال . ولهذا فإن الفن اهم من الإنسان وابقى . وما اكذب اولئك الذين يتنبأون بان الفن سينحط ، اذ يكون قد استنفد كل الاشكال الممكن تصورها ، ويموت . فالعكس صحيح . والفن سيبقى ونموت نحن . فهل ترانا سنقدر ، قبل ان نموت ، على فهم كل أوجهه العديدة ، وكل مرامييه ؟ والذي يفعله الفن ، للعالم ولنا ، من تلك الأشياء التي لا اسم لها ، « الأشياء التي تذهب الى ما وراء الكلمات » . فالفن يذيب صقيع الروح التي تجهمت واطلمت ، ويفتحها لخبرة روحية رفيعة . ومن خلال الفن تأتينا ، احيانا ، في مفضات خاطفة غير واضحة ، لحظات من الوحي والانكشاف لا سبيل للوصول اليها بالتفكير العقلاني . وقد سبق لكتاب آخرين ، اقربهم الى الذهن ديفيد هيربرت لورنس ، ان قالوا بشيء كهذا . ويقول سولجنتسين ان الفن ، في ذلك ، « اشبه بتلك المرأة الصغيرة في الحكايات الخرافية ، التي تنظر فيها ، فلا ترى صورتك انت ، بل ، لدى لحظة ، تلمح ما لا سبيل للوصول اليه او الإمساك به ، ذلك الذي لا يقدر على اخذك اليه حصان طائر ، او بساط سحري ، ذلك الذي تتحرق الروح شوقا اليه .. » (٨) فنحن هنا - بمباراة غيبية بعض الشيء ، سحرية بعض الشيء - قد عدنا ، مرة أخرى ، الى فكرة الفن المنقذ ، الفن المخلص .

ويم يخلصنا الفن ، وبأي شيء ينقذنا ؟ بالجمال الذي يحتاجني القبح (الشر) ويدحضه : « فهناك تلك الخاصية في جوهر الجمال ، في موقف الفن ، وهي ان العمل الفني يحق مقنع ، اقتناعا كاملا لا يدحض . وحتى القلب الذي يقاومه ما يلبث ان يستسلم له .. فالعمل الفني يحمل في ذاته البرهان عليه » (٩) .

وذلك كلام جميل . وقد قيل قبلا . وقاله بالاخص تولستوي . غير ان المشكلة ، فيما يخصه هي : وما القول في العمل الفني يحق ، الذي يدعه فنان شريف . كالركيز د صاد او بودلير مثلا ؟ او حتى فنان خيّر ، كادجار آلان يو المسكين ، انشغل بمشكلة الشر حتى استوعب في رؤى العنف والموت والهول ونحن لا نختلف مع سولجنتسين

(٧) وفلسفيا ، بهذه الفكرة عن مسؤولية الإنسان عن الجمال والقبح في العالم بفعله ، يجعل سولجنتسين الإنسان مركزا للكون - بل ومتحملا لبعض مسؤولية الخالق .

(٨) « خطبة نوبل » ص ٥

(٩) نفس المرجع السابق ، ص ٦ .

او تولستوي حول فكرة الصديق الفني = الجمال . لكن تساؤلنا منصب على الموقف الذي يبصر عنه سولجنتسين . وهو موقف لاهوتي ، في نظره الى الصديق الفني ، الجمال في عمل الفنان المنشغل بالشر والمعبر عنه بصديق واقناع . هل نسلم بان ذلك ايضا ضرب من الجمال ام ، لانه لا يجد منفذا للقبول في ظل موقفنا الديني ، نرفضه ، ونتناقص انفسنا ؟

والمشكلة ، كما تبدو لنا ، فيما يخص سولجنتسين ، هي - مرة أخرى - مشكلة العقائدية . الدوجماتية . الانحياز الى جانب والتجمد فيه . برخت فصل نفس الشيء من موقف مضاد (١٠) . وسولجنتسين يفعله الان في الطرف الاخر . وسرى كيف .

من الموقف العقائدي الضد المقابل لموقف برخت ، يوسع سولجنتسين ما اكده عشرات المرات كتاب من مشارب مختلفة مثل كامي ، وآرتو ، ويونسكو : يوضح التباين الجوهري بين الفن والكتابة التي ترمي الى الدفاع عن افكار مسبقة ، او الاقناع بمقائد سياسية ، اجتماعية ، او فلسفية ، والبرهنة على صحتها ، والترويج لها ، فيقول انه بينما ينبع الفن الحق من نبع واحد هو الصديق ، تنبني تلك الكتابة على عرض من الانسجام الظاهري والتماسك والاتساق ، رغم ما قد تكون قائمة عليه ، معبرة عنه ، من اكاذيب واخطاء ، فتخدع الناس ، وتسنولي على عقولهم ، ولا يتكشف امرها الا عندما تواجهها كتابة أخرى تناقضها ، وتبدو متماسكة ، متسقة ، مفنعة مثلها ، ولا تقل عنها خطلا وكذبا . يقول سولجنتسين : « لا فائدة من تأكيد ما لا يؤمن القلب به » (١١) . ويقول ايضا : « ان المفاهيم المصطنعة (التي تقوم عليها تلك الكتابة) لا تستطيع ان تصمد لاختبار الفن (التعبير عنها في صور images) ولذا فانها تتفتت وتهاوى ، ويتكشف سقمها ، واقتنارها الى اللون ، ولا تقنع احدا . اما تلك الاعمال التي تهل من نبع الحقيقة ، وتقدم اليها في شكل مركز حي ، فانها تأسرنا ، وتوصل انفسها اليها ، ولا يستطيع احد ، حتى بعد قرون ، ان يدحضها » (١٢) .

ومرة أخرى ، هذا كلام صادق وجميل ، ويميد الى الذهن ما سبق ان قاله تولستوي عن عمومية الفن وديمومته من خلال ما فيه من صدق . لولا ان سولجنتسين ، وقد استوعب تاما - فيما يبدو - في ممرته العقائدية ، يكاد يقنعنا بان تباين الكتابة التي تصدر « عما يقوله القلب ويؤمن به » (كما قال الرومانسيون في القرن التاسع عشر) عن الكتابة التي تصدر عن الايمان بعقيدة سياسية او اجتماعية معينة هو المصدر الوحيد والمعيار الوحيد للصدق ، وبالتالي ، لكون العمل عملا فنيا على الاطلاق . وهو بذلك يضع نفسه على الوجه الاخر من العملة ، وعلى الوجه الاخر كتاب من امثال برخت ويسكانور ، يقولون ان الفن لا يكون فنا الا اذا رفع السلاح في خدمة عقيدة سياسية .

وسولجنتسين نفسه واع بما يشيره موقفه من تساؤل ، لانه ما يلبث ان يطرح السؤال ، بالصيغة التالية : « هل ينبغي للفنان والفنان ان يذبحا في طريقهما ، ام ينبغي لهما ان يضعنا نصب اعينهما باستمرار واجبهما تجاه المجتمع ، ويجعلا عملهما مفيدا له ، وان كان ذلك بغير انحياز » (١٣) ويجب على السؤال بقوله : « دعونا نسلم بان الفنان ليس مدينا بشيء لحد : ومع ذلك فانه مما يؤدي ان نجده قادرا على الانسحاب الى عوالم من خلقه ، او الى براري النزوات

(١٠) نفس المرجع ، ص ١٦ .

(١١) « خطبة نوبل » ص ٦ .

(١٢) أرجع الى دراستنا الطويلة عنه بكتابتنا « دراسات في الادب

الاوربي المعاصر » ، بغداد ، ١٩٧٢ ، ص ص - ١١١ - ٢٢٨ .

(١٣) نفس المرجع ، نفس الصفحة .

(١٤) نفس المرجع ، ص ١٦ .

الذاتية ، تاركاً عالم الواقع ، بذلك ، نهياً للماجورين ، والتافهين ، والمجانين . ان هذا القرن العشرين الذي نعيش فيه قد تبين انه اشد فسوة من القرون التي سبقتة . . .»
فهو - بايجاز - ليس هروباً ، وليس انزعالاً . ورغم ازدرائه « لفن القضية » (L'art à thèse) ليس دون النضالية . . كل ما في الامر انه ، على النقيض من النضاليين اللتزميين كتاب فن القضية الذين الفناهم من عاهه حتى الان ، يضع نضاليته والتزامه ضد القضية (الماركسية) في جانب قضية اخرى ، كما سنرى .

وتحدثت عن العدل والاخلاق

ان كان الصدق عند هذا الكاتب نبع كل فن ، وقد رأينا انه ، قرينا لواقعية اللتزميين، صدق ملتزم بدوره ، وان كان متخذاً موقفه في الجانب الاخر من الساحة ، نقول ان كان الصدق نبع الفن ، عنده ، فالعدل موضوعه الاول والاثير .

في الجزء السابع من كتابه الذي جعله بطلاً في الغرب ، وطرد بسببه من بلاده ، « ارخبيل المعتقلات » ، يقول سولجنيتسين :

« ان القانون في بلادي قوي ، ومخائل ، ولا يشبه شيئاً مما يطلق عليه اسم القانون في اي مكان على ظهر البسيطة . . ورغم ذلك فانه ينسى تماماً نك الخطيئة التي اسمها « الشهادة الزور » ، بل وانه ، عامة ، لا يعتبرها ذنباً يسافب مرتكبه . فما اكثر شهود الزور الذين تروج احوالهم بين ظهرانينا ، ويتقدمون بخطى وثيدة نحو شيخوخة مبعلة ، ينعمون فيها باحترام الجميع ، ويستندفئون بالشمس القارية لخنم ايامهم . وبلدنا ، روسيا ، البلد الوحيد في العالم ، وفي التاريخ كله ، الذي يدلل شهود الزور ، وينعم عليهم ، ويرعاهم .

« وبالمثل ، يقصر قانوننا عن القصاص من القضاة - القتلة ، والمدعين - القتلة . فكلهم يظلون في وظائفهم ، ويكرمهم المجتمع ، لسنوات عديدة ، يسيرون بعدها ، رافعي الرأس ، الى اخريات ايامهم ، وقد قاموا بالواجب خير قيام .

« نحن - ببساطة - شعب يحوطه حائط ضرب أجره من الاكاذيب ، وعجنن ملاحظه بالباطل . . .»

وفي خطبة جائزة نوبل ، يقول سولجنيتسين انه معتقد لاراء كامي ، الذي كان العدل ، كقيمة اخلاقية ، وكطريقة حياة ، شاغلاً اساسياً له ، وقضية جوهرية في اعماله .

وفي حيشيات منحه جائزة نوبل تؤكد الاكاديمية السويدية على « الموقف الاخلاقي الراسخ الذي واصل من خلاله التقاليد العريقة التي لا تعد للادب الروسي » .

فأي رجل هو اذن ذلك الرجل العادل ، المنادي بالصدق ، وما قيمته ، وما الذي يبحث عنه ، وماذا يريد ؟

لنصرف نظراً عن الهالة التي البسته اياها صحف الغرب واجهزة الاعلام به ، فهي هالة مشبوهة ، ومعوجة بعض الشيء فوق راسه (لانها مفرضة) تماماً كعبادة الشيطان التي ظلوا يحاولون ان يلبسوه اياها في وطنه ، طوال عشر سنين او اكثر . ولنلق بالا الى هذه الكلمات التي وردت على لسان احدى شخصياته في رواية « الدائرة الاولى » :

« ان وجود كاتب عظيم في بلد ما اشبه بوجود حكومة اخرى (منافسة) في ذلك البلد » .

فلعل هذه الكلمات تكون مدخلنا الى جواب ما نسال عنه . ففي هذا العصر الذي تميز بتضخم الانظمة الحاكمة والايديولوجيات

التليبية التي تقوم عليها ، حيشاً كانت : وايا كان لونها ، لتبنت اشبه باورام سرطانية خبيثة تقنات على الجسد الحي الذي تعيش عليه ، وعلى مهل تشووه ، وتستنزفه ، وتمينه ، في هذا العصر الذي تسخر فيه النظم اخر ما وصل اليه العلم من كسوف في تطوع الروح البشرية ، وطمس العقل وقطع الطرق عليه ، وتستخدم احدث تطبيقات العلوم الانسانية والطبيعية (جنباً الى جنب مع مذهب الغاية تبرر كل وسيلة) في ايداء النفس والجسد وتعذيبهما واذلالهما ، في عصر كهذا اي جنون ذاك الذي يدفع فرداً وحيداً ضئيلاً منزلاً الى حيث يقف منتصب القامة امام تلك الهولت المعاصرة ، ليقول لها « لا » ، ويجعل من نفسه حكومة اخرى منافسة في تلك الحلبة الكلية الممتدة ؟ اسمع للرجل وهو يقول في رسالته الى زعماء الاتحاد السوفياتي :

« ولقد لاحظتم ، بطبيعة الحال ، ان رسالتي هذه لا تسعى وراء غايات شخصية . فانا - من وقت طويل - قد خرجت من صدفتكم ، وسوف تنشر كتاباتي بصرف النظر عن اية عقوبة توقعونها او حظر تفرصونه . وكل ما كنت اريد قوله قد قلته الان . وانا ايضا في الخامسة والخمسين ، واظنني قد اثبت بما فيه الكفاية اني لا اقيم وزناً للشراء المادي ، واني على استعداد للتضحية بحياتي » (١٤) .

فهل هو ضرب من الدون كيجوتية ومناطحة طواحين الهواء ، او النرجسية ، او الاستعراضية ، او ضرب من الجنون ؟ في حباله سولجنيتسين ؟ بالقطع لا . ولندع البطولات جانباً ، رغم قوله انه على استعداد للتضحية بحياته ، فالبطولات - من جانب - اشياء راح زمانها ، كما ولي زمان الخوارق والمعجزات ، ولم يعد يؤمن بها احد او يصدقها ، حتى اولئك الذين تنسب اليهم . ومن جانب اخر ، فسولجنيتسين - كما يبدو للمتتبع آثاره وافعاله منذ سنوات - ليس مجازفاً ، ولا ارعن ، وليس بكل ذلك القدر من المثالية . فهو رجل قد حسب حسبه ، من مبدأ الامر جيداً ، واعد عدته ، وعندما جازف كان قد امن ظهره قدر ما استطاع . وفي ظل الوفاق السوفياتي الاميركي ، والانفتاح السوفياتي على الغرب ، فهل ما فعل ، وضرب ضربته ، وافلت الى الغرب الذي نشر اعماله ، واقام حوله ضجة كبرى ما بعدها ضجة . نعم جازف الرجل ، ما في ذلك شك ، وظهرت صورته في صحف الغرب محتضناً طفليه وفي عينيه نظرة خانقة ، لكنها مجازفة محسوبة اتت ثمارها . وهناك مثل انجليزي (لا بد ان هناك مثلاً روسيا يقابله ، وسولجنيتسين مولى بالامثال) يقول « من لم يجازف بشيء لا يفوز بشيء » ، وبالعربية هناك تلك الشطرة من الشعر : « ويفوز بالذات الغاتك اللهج » . ولا نقول ان الرجل ممثل او افاق . فهو مخلص تماماً في كل ما فعل (في حدود نظرتة) ، لكنه - بغير شك - « شاطر وناصح » ، وهو ما لا يأخذه عليه احد ، لان المعركة التي خاضها لم تكن هينة .

ما خطبه سولجنيتسين اذن ؟ اعتقادنا - ببساطة - انه رجل خاب امله ، وضاع وهمه ، فنقد صبره ، وانفجرت مراجل غضبه ، لان حكام بلده لا يرون الامور كما يراها هو . ولا ننسى ان وجود كاتب عظيم في بلد ما هو بمثابة وجود حكومة اخرى (لا مجرد معارضة) في ذلك البلد .

المسألة اذن خلاف عميق وجذري ، بين سولجنيتسين وزعماء الاتحاد السوفياتي . فلنحاول ان نستوضح اوجه ذلك الخلاف واباعاده .

« ان الكاتب قادر - بفضل حسده ، ورؤيته الفريدة للعالم - على ان يكتشف ، مبكراً ، قبل غيره من البشر ، مختلف ادوار الحياة

A . Solzhenitsyn : « Letter to Soviet Leaders » (١٤)

Index on Censorship publication , London 1974

P . 58

ان اتمكن من اقناعكم رغم كل شيء ، ولكي اقترح عليكم ايضا ، بينما لا يزال هنالك متسع من الوقت ، مخرجا ممكنا من المخاطر الرئيسية التي تواجه بلادنا خلال السنوات العشر او الثلاثين المقبلة » . (١٧) .
 تلك ، اذن ، المسؤوليات التي تضعها موهبة الفنان على كاهله :
 الابصار ، والتنبيه ، والنذير ، واقتراح المخرج والحلول . وكلها مسؤوليات اخلاقية بالدرجة الاولى .

وتتضح لنا الاهمية الحيوية لدور الفن الصادر عن التزام اخلاقي ، في القرن العشرين « الذي تبين انه اشد قسوة من كل ما سبقه من قرون » ، اذا ما القينا بالا الى تعدد سلالم القيم في عالم اليوم وازدواج المعايير التي ينظر بها البشر في مختلف انحاء العالم الى ما يجري في عالمهم ، تحت انوفهم ، او بعيدا عنهم . « فكل ما هو بعيد عنا ، ولا يتهددنا في عقر دورنا ، ننظر اليه باعتباره مما يمكن احتماله ، مما ينبغي ان تطيقه النفس ، رغم الانين ، والتاوهات ، والصرخات المكتومة التي تترامى الى مسامعنا ، والارواح التي تزهق تحت سمعنا وبصرنا ، حتى وان كانت ارواح الملايين من الضحايا » (١٨) .

وهذه المعايير المزدوجة ، هذا الشلل الاخلاقي ، والعجز عن فهم شقاء الآخرين والتعاطف مع تطلعاتهم الى الخلاص منه ، ما الذي سيقومها ، ومن الذي سيوحد عالمنا ؟ من الذي سيراب صدعه ؟ « لانه طالما ظلت هنالك ستة سلالم للقيم ، او حتى اربعة ، او حتى اثنان فقط ، لن يكون هنالك ابدا عالم واحد ، وبشرية واحدة . . ولن يكون لنا بقاء مما على سطح هذا الكوكب . » (١٩) ما الذي سيصالح هذه السلالم المتضاربة من القيم ، وكيف ؟ ما الذي يمكن ان يخلق للبشرية

الاجتماعية وواجهها ، وهو يراها ، وفي معظم الاحيان ، من زاوية غير متوقعة . ذلك جوهر الموهبة . غير ان الموهبة تفرض على صاحبها التزامات معينة ، منها ان الكاتب ينبغي ان يوقف مجتمعه على كل ما توقعه عليه موهبته ، وتقع عليه بصيرته ، خاصة ما كان معتلا باعثا على القلق . . لقد كان الادب الروسي دائما ذا حساسية خاصة تجاه المعاناة الانسانية . ونحن احيانا يقال لنا ان مهمة الادب هي ان يجمل المستقبل ويزوقه . غير ان ذلك ضرب من التزييف وتبرير للكذب . . » (١٥) .

فالمنطلق الاساسي هنا التزام اخلاقي على الكاتب ، او الفنان الموهوب ، بان يكرس موهبته في خدمة مجتمعه ، وان يجعل من ابداعه تديرا بضا هو متربص من شرور .

ومن جانب اخر ، يقول سولجنيتسين : « انسا (في كتاباتي) احاول ان اشرح المسار البطيء لتاريخنا (الروسي) وابين اي تاريخ كان . . » (١٦) .

فعلى الكاتب ايضا - من خلال استقراء التاريخ كما يتناوله في اعماله - ان يستظهر اسرار الذي يحتمل ان يتخلده ذلك التاريخ مستقبلا ، معززا الرؤية التي يقع عليها حسنا ، بذلك التنبيه العلمي القائم على تحليل احداث التاريخ وتتبع مساره .

ويضيف سولجنيتسين الى التزامات الكاتب التزاما اخر هو اقتراح الحلول لما يتنبأ به من مشكلات وكوارث مقبلة . في خطابه الى زعماء الاتحاد السوفياتي يقول : « . . اني اوجه اليكم هذا الخطاب لكي اوقفكم على رؤيتي للمستقبل ، وهي رؤية تبدو لي صائبة ، املا

(١٧) نفس المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(١٨) « خطبة نوبل » ، ص ١٢ .

(١٩) نفس المرجع السابق ، ص ١٢ .

(١٥) « Solzhenitsyn : A Documentary Record »

Penguin , London , 1970 , P . 38

(١٦) « خطاب الى زعماء الاتحاد السوفياتي » ، ص ٨ .

صيادون في شارع ضيق

رواية بقلم

جبرا ابراهيم جبرا

« صيادون في شارع ضيق » رواية من نوع آخر . فهي « رواية افكار وشخصيات » بالدرجة الاولى ، كما قال عنها المستشرق الانكليزي دنيس جونسن ديفز . ولكن الاهمية في « صيادون » متأية من تصوير الشخصيات ومن تقديم الافكار والمواقف . والشئ الذي يجعل « صيادون » عملا ادبيا بارعا هو قدرة الكاتب على تكديس جميع هذه الشخصيات والافكار والمواقف في بوتقة صغيرة وجعلها تتحرك في مختلف الاتجاهات ، رغم ان واحدا من هذه الشخصيات لا يشبه الاخر شيئا كاملا . اما كيف ينتقل الكاتب من فكرة الى اخرى من دون ما علاقة ظاهرة ، فذلك دليل اخر على براعته .

الدكتور عبدالواحد اللؤلؤة

صدر حديثا

نفسنا موحدا للتقييم تزن به الافعال الخيرة والافعال الشريرة ، وتقدر ما يطاق وما لا يطاق ، حتى يمكن للبشرية ان تضع لنفسها خطا صائبا يفصل بين هذا وذاك ؟ وما الذي يمكن ان يوجه غضبنا ضد ما هو فظيع بحق ، لا ضد ما هو قريب منا ومزعج فحسب ؟ اي شيء ذلك الذي يستطيع ان ينفذ بمثل ذلك الفهم المستنير اناسيا من خلال الحائط الفولاذي لخبرتنا المباشرة المحدودة ويخترق حجب تصبنا ، وضيق افقنا ليحمل الى فلوبنا افراح واحزان غيرنا من البشر البعيدين عنا ؟ الدعاية ؟ القهر ؟ البرهان العملي ؟ كلا . كل هذه سبل مسدودة وعاجزة . الفن وحده ، الادب ، هو القادر على ذلك . هو القادر على التغلب على ضعف الانسان المتمثل في كونه غير قادر على التعلم الا من تجربته المباشرة ، والتنمائي او العمى عن خبرات غيره . فالفن يوسع من وقت الانسان المحدود على الارض اذ يحمل من انسان لآخر الكل المركب لخبرات الفير ، بكل اغبائها ، والوانها ، ومذاقها ، والفن يعيد خلق كل الخبرات التي يعيشها غيرنا من البشر ، ويكسوها لهما ، فتجيا ، حتى ياخذها اليه كل انسان ، ويجعلها خبراته هو ايضا . ولا تقتصر هذه العملية الحيوية على الاجيال المتعاشية وحدها ، بل تمتد الى الاجيال المتعاقبة من البشر ، بحيث يضيف الفن الى دوره كناشر لخبرات البشر ومعهم لها ، دورا لا يقل اهمية ، هو دور الذاكرة الحية للامم ، فيحافظ على تاريخها بشكل لا يسمح بتشويهه او الاساءة اليه . والفن - فوق هذا وذاك - قادر على تخطي عواقب اللغة ، والعرف ، والتقاليد ، والنظم الاجتماعية ، التي تفصل بين الامم ، فيخلق روابط حية بينها ، ويفني كل امة بخبرات غيرها ، تماما كما يفعل على مستوى الافراد ، وبدا يتيسر للامم ان تتعلم من اخطاء بعضها البعض فلا تكرر (٢٠) . فالن منقذ ومخلص ، لا على مستوى الافراد فحسب ، بل وعلى مستوى الامم ، والبشرية جمعاء . ومن الواضح انه لكي يقوم الفن بذلك الدور ينبغي له ان يقوم على الصدق وحده ، ويجافي الكذب والتزييف ، ويصدر عن القيم الاخلاقية التي لا تستقيم للبشر حياة بدونها ، وفي مقدمتها العدل .

ولكن ، العدل والاخلاق لمن ؟

من كل ما احاط ويحيط به : ثماني سنوات في المعتقل ، ثلاث سنوات في المنفى ، عشر سنوات من الصراع بعد ظهور « يوم في حياة ايفان دينزوفيتش » ، جائزة نوبل . ثم الصدام الاخير ، والطرده من الاتحاد السوفياتي ، وحكم بمنفى لا يعلم متى يعود منه الى وطنه ، من كل ذلك ، ومن مواضع باينها في اعماله يتفوق فيها على نفسه ويجد له مستقرا بحق في صحبة الكبار في عالم الادب من مواطنيه ، وان بقي دائما في ظل سلفه العظيم تولستوي . . من كل ذلك قد يبدو سولجنتسين ، خاصة بعد الضجة الكبرى التي اثيرت في الغرب والشرق حوله ، كما لو كان من اولئك الذين تذكر العصور باسمائهم ولا يذكرهم هم بها ، او اولئك الذين تنسب الهم اليهم ولا يميزون بنسبهم اليها . وحتى نجد لنا منفذا الى ما قد يكون تقييما صائبا لامكانية ذلك ، وامكانيات الرجل ذاته ، نعلم اسماعنا قليلا عن الضجيج العظيم المثار حوله ، وثلثت باعيننا قليلا عن الاضواء المسطحة عليه ، ونعود الى المحك المأمون الوحيد الذي يركن اليه . . الى منطلقات فكره ، المواقف التي يصدر عنها ، وما يعبر عنه في ابناءه . اما الصخب العظيم (ان له ، وان عليه) فليس الا هتاف اتاسي يتظاهرون خارج النافذة .

في خطابه الى زعماء الاتحاد السوفياتي يقول سولجنتسين : « انا اتمنى الخير لكل الشعوب ، وكلما كانت تلك الشعوب اقرب الينا ،

(٢٠) ارجع الى « خطبة نوبل » : ص ١٤ و ١٥ .

واكثر اعتمادا علينا ، كانت تمنياتي لها بالخير اشد حرارة . غير ان مصير الشعوب الروسية والاوكرانية هو الذي يشغلني فوق كل شيء . والمثل عندنا يقول : « اعظم نفعك يكون حيث مسقط رأسك » . وهناك سبب اعرق ايضا : المذابح التي ليس لها مثل اني عاناها شعبنا » (٢١) . اي كما نقول نحن : « الاقربون اولى بالمعروف » . وهذا كلام واقفي وجميل ، ولا مأخذ عليه ، خاصة اذا ما تذكرنا ان الكاتب امرؤ مهتم بالعدل ، والقيم الاخلاقية الباقية ، وخير البشر ، ومنافع عن الحرية ، وتذكرنا ايضا انه كاتب يقارن نفسه بالبيرگامي .

ولكن لنصغ اليه وهو يقول في حديث صحفي ادلى به لمجلة ادبية تشيكية ، ونشر عام ١٩٦٧ : « لقد كنت مهتما بالمشكلات الاخلاقية للمجتمعات المتحضرة العليا ، رأسمالية كانت ام اشتراكية » (٢٢) . ولنصغ اليه ايضا وهو يقول في خطابه الشهير الى زعماء بلاده : « منذ الذي يمكن ان يتردد في التوقف عن تمويل ثوار اميركا الجنوبية من اجل الانصراف الى تحرير نساننا من هذه العبودية (عبودية العمل اليدوي) ؟ » (٢٣) وهو يقول ذلك في خطابه (٥ - ٩ - ١٩٧٣) عن شيبي ، وغير شيبي من بلدان تلك القارة المنكوبة ، وياخذ على حكام بلاده انهم يساعدون ثوارها ، وهو يتحدث عن الحرية ، وعذابات البشر ، ولم ؟ لان احساسه الديني ، ربما قد اوذي واستنفرت حينته لرأى المرأة الروسية وهي تعمل في المصانع والحقول وشوارع المدن . ومرة اخرى : « ان حكاية تبينا لماوتسي تونج بدلا من جار مسالم كتنسانج تشاي تشيك ، ومساعدتنا له على دخول سباق التسليح النووي ، من حكايات التاريخ القريب ، ويعرفها الكافة . والان ، الا ترانا سائرين الى غلطة مماثلة مع العرب ايضا ؟ » (٢٤) فالرجل (وقد قلنا ان وجود كاتب عظيم في بلد ما يعني وجود حكومة اخرى ، منافسة ، في ذلك البلد) يشدد النكير عليهم لانهم يساعدون العرب ويسلحونهم ، كما ساعد من سبقوهم في الحكم ماوتسي تونج وسلحوه . ورغم ان التاريخ القريب يوقفنا على ان احدا في روسيا لم يكن مدلهما بماوتسي تونج ، وان الذي تلقى المساعدة فعلا كان الشعب الصيني ، فان المقارنة هنا لا تستقيم . لان سولجنتسين اذ ياخذ على بلاده تسليح ماوتسي تونج ومساعدته على دخول سباق التسليح النووي ، يفعل ذلك على اساس انه يعتبر ان الصين احد خطرين اساسيين يتهددان الاتحاد السوفيتي خلال السنوات العشر او الثلاثين القادمة . فاين وجه الشبه الذي يمكن ان يحصل مساعدة الاتحاد السوفيتي للعرب غلطة مماثلة لمساعدتهم للصين ؟ اتراه يخشى على الاتحاد السوفيتي من العرب المساكين المتأخرين ، ام انه ياسف لان بلاده ، مرة اخرى ، لم تقف بجانب جار مسالم وديع ؟ وعلنا لا ننسى ان الورقة الراححة والحاسمة في مقامرة سولجنتسين مع السلطة في بلاده كانت ، منذ البداية ، نشر اعماله في الغرب ، والحصول على مؤازرة كاملة ومدوية من اجهزة الاعلام القريبة .

غير اننا نعلم الرجل (وعقولنا ايضا) اذا اوحينا انه كتب ذلك وعينه على من يتحكمون في دور النشر واجهزة الاعلام في الغرب وحسب ، فالسالة لديه ذات جذور ابعده واعمق ، اذ انها تشكل جزءا من موقفه الفكري ككل ، وهو موقف يبدو ، مما تشهد به كتاباته حتى الان ، ان له وجهين اساسيين : وجه محافظ يعادي « التطرف » في كل اشكاله ، والخروج على الاصول المرعية ، والقانون والنظام (ولقد

(٢١) « رسالة الى زعماء الاتحاد السوفياتي » ، ص ٧

(٢٢) سجل واثقي - دار بيتجون ، ص ٣٧ .

(٢٣) « رسالة .. » ، ص ٤ .

(٢٤) « رسالة .. » ، ص ١٢ .

ينبو ذلك غربيا من كاتب يناصب السلطة العدا ، لكنه لن يبدو كذلك متى اردتنا لماذا يعاديا) ، ووجه اخر قومي ، يعادي العالية ، وكل ما تنطوي عليه .

واما الوجه الاول فيسفر واضحا محدد القسمات في القوال كهذه: « ان النوازع البدائية القديمة ما زالت حية بيننا ، تفل فعلها في تمزيق عالمنا وبث الفرقة بين اهله . تلك النوازع هي : الجشع ، والحسد ، والفجور ، واضمار الشر المتبادل ، وان كانت قد باتت تتخفى الان وراء اقنعة حديثة ، وتسمى باسماء مستعارة « كالصراع الطبقي » ، و « الصراع العنصري » ، و « نضال الجماهير » ، و « نضال الحركة العمالية المنظمة » (١) « (٢٥) فحتي التحركات الدستورية المهذبة المخففة مكبوحة الجماع التي تقوم بها نقابات العمال في بريطانيا مثلا ، تندرج في فاموس سولجنستين تحت اسم التطرف والنوازع البدائية المدمرة (٢٦) . ولا فرو ، فهو يعتبر سرقة اوراق البنتاجون ونشرها على الملا جريمة (٢٧) وكيف لا يعتبرها كذلك وهو القائل : « طبعاً ، فالحرية قيمة اخلاقية ، لكنها لا تظل كذلك الا اذا ظلت داخل حدود معينة تلزمها فلا تتخطاها ، لانها ، وراء تلك الحدود، تتدهور لتصبح تحللاً وفسقاً . و « النظام » ليس غير اخلاقي ، اذا كان يعني نظاماً هادئاً مستقراً . » (٢٨) ولهذا فانه ليس من الغريب ان يعنى على بعض الديموقراطيات المحترمة عجزها في مواجهة حفنة من الارهابيين الاشقياء (٢٩) . ولماذا يعاني عالمنا من كل هذه الاربطة ؟ لان ذلك الرفض البدائي لقبول المصالحة والنحل الوسط قد تلبث في بنيتنا الفكرية وعدتنا النفسية ، ورفنا الى مستوى المبادئ والفضائل وهو التسبب في موت ملايين الضحايا المرة بعد المرة في الحروب وغيرها من اعمال العنف . فالعنف ، الذي يتزايد عجز القانون عن التحكم فيه ، من يوم الى يوم ، يخطو اليوم بجرأة متزايدة، مزهواً ، منتصراً ، على مسرح العالم اجمع ، غير عابئ بان عمقه قد انكشف المرة بعد المرة على طول التاريخ كله . (٣٠) ولا يخضر لسولجنستين ببال ، اذ يقول هذا القول ، وهو المتحدث عن العمل ابداً ، ان ذلك العنف كله قد يكون فجره ونفخ في جلوته الظلم والظفيان والتنجير . والحقيقة ان المرء اذ يصفي اليه يحس كما لو كان قد التى بسمعه الى سيد وقور ومنظم اخر من « سلالة البقالين » التي طالما ازرى به المثقفون الفرنسيون وهم يهزأون بالبورجوازية الصغيرة وقيمها . والا فباي ضمير وباي عقل يقول الرجل : « دعوا ذلك للصيبيين ليهناؤا به بعض الوقت ! دعوهم يحملون عبء ذلك الجوال الضخم من الالتزامات الدولية التي لا وفاء بها . دعوهم يتوجعون ويلهثون وهم يعلون البشرية ، ويدفعون ثمن اقتصادياتهم السفهية (مليونيا يكمله يدفع لكوبا كل يوم) ودعوهم يؤيدون الارهابيين ومقاتلي العصابات في النصف الجنوبي من الكرة الارضية « اذا ارادوا » (٣١) « ودعونا نترك العرب لمصيرهم . فلديهم الاسلام ، وسوف يتدبرون امورهم بانفسهم . ودعونا نترك اميركا الجنوبية لمصيرها ، فليس هناك من يهدد بالاستيلاء عليها (١) . ودعونا نترك افريقيا لتكتشف بنفسها كيف يمكنها ان تخطو خطواتها الاولى الى الحضارة ومفهوم الدولة ، متمنين لها الاتق في الاخطاء التي وقعنا فيها فنكرر طموح « التقدم

الذي لا ينقطع » . . (٣٢) وهو يقول ذلك رغم انه مدرك تماما ان « المجاعة مستشرية في مناطق كثيرة من العالم ، وسوف تستشري بضراوة افطع نتيجة لزيادة عدد السكان ، وندرة الارض ، ومشكلات الخروج من عصر الاستعمار . » (٣٣) ونحن نقول ذلك على سبيل حسن الظن وافترض النية الطيبة ، لانه من الممكن ايضا - قياسا على كل ما يقول - ان نفترض انه يدعو الى ترك كل تلك الشعوب في اسيا وافريقيا واميركا الجنوبية لمصيرها لانه مدرك تماما ان المجاعة مستشرية ، وان العالم يعاني من الانفجار السكاني ، ومن ندرة الارض، وان المتخلفين الجياع يمانون فوق ذلك كله من مشكلات الخروج من عصر الاستعمار .

ومرة اخرى ، حتى لا نظلم الرجل ، فنتهمه بالتمصب ضد المتأخرين لانهم كذلك ، يحسن بنا ان نذكر ان من بين ما يأخذه على زعماء بلاده مشروعاتهم لاستكشاف الفضاء ، ويقول لهم « دعونا نكف عن سماع اي شيء عن الفضاء الخارجي والكون » (٣٤) فهو رجل واقعي يؤمن بان عصفورا في اليد خير من عشرة على الشجرة كما يقال . والمصفور الذي في اليد ، في مشروعه لانقاذ روسيا من الدمار هو سيبيريا والشمال الذي اهمل حتى الان ، فوق ان الفضاء وغزوه جزء من التقدم الذي ينبغي ايقافه ، ومطالبته الخاصة بالكف عن مساعدة الشعوب المتخلفة وتركها لمصيرها ، مثل مطالبته بايقاف التقدم وبعوث الفضاء ، مسألة مبدا ، واقتناع عقلي : « ان شعبنا لن يعيش في الفضاء ، او في جنوب شرقي اسيا ، او اميركا اللاتينية ، فسيبيريا، والمناطق الشمالية هي املا ، وذخيرتنا للمستقبل . » (٣٥) ذلك رغم انه غير غافل عن مشكلة تزايد السكان في عالم اليوم بشكل يهدد بانفجار مخيف ، كما انه غير غافل عن مشكلة تناقض المخزون المعروف حتى الان من الثروات الطبيعية في باطن الارض . ولما كان ليس بغافل عن هذه المشكلة او تلك فما من شك في انه قد خطر له ان اي جهد تبذله دولة متقدمة صناعية كالاتحاد السوفيتي لمساعدة شعوب العالم المتخلفة على محاولة الخروج من مأزقها الانساني المتعدد الوجوه - بصرف النظر عن كونه من قبيل العلاقات العامة الايديولوجية ام لا - قد يساعد ، ولو لبعض الوقت ، على تأجيل ثورة عالمية لا يمكن التنبؤ بمداها او ابعادها ، غير انه من الممكن ، لكل ذي عينين (وسولجنستين له عينان من الواضح انهما مفتوحتان على ستمهما) ، التنبؤ بشيء واحد فيما يخصها ، وهو انها ستفجر في نصف الكرة الجنوبي الذي يتحدث عنه ، وستفجر في وجه الشمال الغربي بصرف النظر عن كون «الطيب»، شمالا ، ومن يكون « الخبيث » . ولا يدعي احد ان الاتحاد السوفيتي، منذ نشط في مجال العلاقات الخارجية ، تعاون مع من تعاون معه من الشعوب المتأخرة الفقيرة لانه يخشاها او يهاب ثورتها القادمة . بل قد يوجد من يقول ان الاتحاد السوفيتي كان منفذا لمعتقداته الايديولوجية (كما يقول سولجنستين) عندما ساعد تلك الشعوب ، وكان داخلا في صراع قوي مع الغرب ، تحول في ظل الوفاق الى تنافس ، وكان يحكم صورته التقدمية - ناجعا في توجيه نقمة الفقراء الجياع في الجنوب الى الاغنياء الغربيين وحدهم .

وبالمثل ، ما دام ليس بغافل عن ان « انهن ما تمتلكه كل الشعوب من اصول ، اليوم ، هو الارض : الارض كمساحات مفتوحة للاستيطان . . الارض كمبادة تكسو مواردنا الطبيعية المدفونة في اعماقها، والارض

(٢٥) « خطبة نوبل » ص ١٧ و ١٨ .

(٢٦) « رسالة .. » ، ص ٥١ .

(٢٧ - ٢٩) نفس المرجع ، نفس الصفحة .

(٣٠) « خطبة .. » ص ١٨ .

(٣١) « رسالة .. » ص ١٨ .

(٣٢) « رسالة .. » ص ٢٨ .

(٣٣) « رسالة .. » ص ٣٣ .

(٣٤) « رسالة .. » ص ٥٥ .

(٣٥) « رسالة .. » ص ٢٩ .

كثيرة خصبة ... » (٣٦) ، وما دام يعلم علم اليقين أنه حتى « مع هسبان كل ما هو متاح من الأرض على سطح هذا الكوكب ككل ، ومع هسبان أية زيادة (محتلمة أو ممكنة) في خصوبة التربة .. فإن هذه وتلك ستكون قد استهلكت (استهلكتها الزيادة المطردة في عدد سكان الكوكب ككل) عند حلول سنة ٢٠٠٠ (أي بعد ٢٦ سنة من الآن) .. وحتي مع افتراض مضاغفة الإنتاج الزراعي ، فإن أي زيادة في خصوبة الأرض بالنسبة للكوكب ككل سوف تكون قد استهلكت عند حلول سنة ٢٠٣٠ .. » (٣٧) ، ما دام يعلم كل ذلك وليس بفاصل عنه ، ففيم يقيم الدنيا ويقدها حول تعمير الشمال الشرقي وسيبيريا وهو يعلم أن ذلك - بحساباته هو - ليس حل المشكلة (مشكلة تزايد السكان ، واستهلاك المتاح من الأرض ، واستهلاك خصوبة الأرض بالنسبة للكوكب ككل) وليس منقذا من المجاعة المحتومة المقبلة والتزاحم الذي لا يطاق والذي لا مهرب منه ، ففيم أيضا أخذه على زعماء بلاده اهتمامهم بغزو الفضاء الخارجي وقد يكون في غزو الفضاء حل لمشكلة البشر المقبلة ؟ غير أننا ننسى فيما يبدو أن سولجنستين بدأ أصلا من الاهتمام بالمشكلات الأخلاقية العليا الخاصة بالمجتمعات المتحضرة العليا ، راسمالية كانت أم اشتراكية ، وله مسرحية معروفة تؤكد ذلك (٢٨) وهو يتحسس لها مرة ويقول أنها من خيرة أعماله ، ويتنكر لها مرة ويقول أنه لا يعتقد أنها مسرحية جيدة ، فهو موزع الضمير بشأنها فيما يبدو . كما أننا ننسى أيضا أن سولجنستين كاتب وطني ، قومي النظرة ، ومسيحي مؤمن بربه وبالعالم الآخر الذي يذهب إليه الفقراء ليعوضهم الله خيرا عن كل ما ذاقوه من بلايا ومحن ومجاعات في هذا العالم الموقوت العابر ، ولهذا فإنه يقول لحكام بلاده : « أنا لا يجب الانساق وراء اعتبارات العملاقة السياسية ، ولا يجب أن نشغل أنفسنا بمصائر انصاف الكرة الأخرى : ذلك شيء يجب أن نتخلى عنه إلى الأبد ، لأن تلك فقاعة من المحتم أن تنفجر - وانصاف الكرة الأخرى ، والمحيطات الدافئة سوف تنمو بغير عون منا ، بطريقتها الخاصة على أية حال .. » (٢٩) وسولجنستين لا يقول لنا أية فقاعة تلك التي من المحتم أن تنفجر ، لكنه يقول لنا ما يجب على « انصاف الكرة الأخرى والمحيطات الدافئة » أن تفعله : « أن « العالم الثالث » ، الذي لم يبدأ في السير بعد على الدرب المهلكة التي سارت عليها الحضارة الغربية ، لا سبيل إلى انقاذه إلا بالتكنولوجيا ذات النطاق الصغير التي تتطلب زيادة العمل اليدوي لا تقليله ، وتستخدم أبسط الآلات ، وتعتمد اعتمادا كاملا على المواد المحلية .. » (٤٠) وبذلك يستعد العالم الثالث لإقدام سنة ٢٠٠٠ أو سنة ٢٠٣٠ ، ويواجه المجاعة المقبلة ، والانفجار السكاني ، واستنفاد الموارد الطبيعية ، واستهلاك المتاح من الأرض ، واستهلاك خصوبة التربة .

لكن ذلك كله كلام في الهواء كما يقولون ، فسولجنستين - في حقيقة الأمر - لا يعنيه عالم ثالث أو عالم رابع ، ولا يهمه أن تنمو بلدان المحيطات الدافئة وانصاف الكرة الأخرى أو لا تنمو أو تموت . فاهتمامه - بكل قيمه الأخلاقية ، وانشغاله بالعدل وسيادة القانون واستتباب الأمن والنظام - منصرف إلى الحضارات العليا . فهو - انطلاقا من معطيات الحاسبات (المقول) الأليكترونية ، كما يقول ، يتنبأ « بيوم » قيامه يحل فيه الدمار على نطاق واسع بسكان هذه

الأرض ، وهو « يوم » قيامه آت لا ريب فيه « خلال العقود الأولى من القرن الحادي والعشرين ، أن لم يكن لاستنفاد موارد الأرض ، فسبب دمار البيئة .. » (٤١) ولنسمع له جيدا الآن : « غير أنه من المحتمل جدا في واقع الأمر ، بل وأكثر من المحتمل ، أن الحضارة الغربية لن تموت (في « يوم » القيامه ذاك (٤٢) لأنها حضارة ديناميكية شديدة القدرة على الابتكار بحيث ستتمكن من الخروج من تلك الأزمة الداهمة سالمة ، وإذ ذلك ستعظم كل مفاهيمها الخاطئة القديمة ، ولن تكاد تنقضي بضعة سنوات إلا وتكون قد أخذت في إعادة التعمير الضرورية لكل ما ضرب . أما العالم الثالث فإنه سيكون قد الفى بالا إلى النذر في الوقت المناسب ولم يأخذ الطريق التي أخذها الغرب على الإطلاق . وذلك ما زال أمرا مستظاعا تماما بالنسبة لمعظم البلدان الأفريقيه ، والعديد من البلدان الآسيوية .. » (٤٢) ولا يقول لنا سولجنستين كيف سيستطيع العالم الثالث أن يخرج من تلك الأزمة الداهمة التي لن تخرج منها الحضارة الغربية إلا بجهد أسنانها كما يقولون . وقد يوجد من يقول : طبعاً . فالحضارة الغربية ستدهمها تلك الأزمة لأنها اختارت درب التقدم الذي لا يتوقف والتكنولوجيا على نطاق واسع ، أما العالم الثالث فلن تدهمه الأزمة لأنه لن يسير على درب التقدم ولن يأخذ بالتكنولوجيا إلا على نطاق محدود صغير . وذلك ما يبدو أيضا أن ظاهر قول سولجنستين يريد أن يوحي به . لكنه قال من قبل أن الموارد ، والأرض ، والخصوبة ، والإنتاجية الزراعية ، ستستهلك بالنسبة للكوكب ككل . وقال بعد ذلك أن حسابات « يوم » القيامه تقوم على خمسة عوامل أساسية : السكان ، والموارد الطبيعية ، والإنتاج الزراعي ، والصناعة ، وتلوث البيئة (٤٣) . فمن الذي سيفف بين العالم الثالث وبين ما سوف تتسبب فيه هذه العوامل مجتمعة لسكان هذا الكوكب ككل ؟ أما السكان ، فالعالم الثالث أكثر عوالم الله سكانا واشدها ضراوة في إنتاج النسل . وأما الموارد الطبيعية فقد لا يستنفدها أهل العالم الثالث - خاصة متى أخذوا بنصيحة سولجنستين وتجنبوا درب التقدم - ولكن من الذي يضمن لهم إلا يأخذها أهل الحضارة الغربية الديناميكية شديدة القدرة على الابتكار ، إما مواصلة التقدم ، وإما لإعادة البناء وتعمير ما ضرب بعد الأزمة ؟ وليقل لنا سولجنستين ، وهو القائل أن الذي يهيمه مصير الشعوب الروسية والأوكرانية ماذا يمكن أن يكون موقفه الأخلاقي العادل أن تطلب الحرص على مصير تلك الشعوب الحصول على ما بأرض شعب من شعوب العالم الثالث من وقود أو مواد خام ؟ لتعمير سيبريا والشمال الشرقي مثلا ؟ ونفس القول ينسحب على إنتاج الطعام . فأرض العالم الثالث التي قد تكون مزدحمة بالسكان ، واطئة الخصوبة ، لكنها لم يلحقها تلوث البيئة نظرا للاحتياج عن الإفراط في « التقدم » ، هل سيحفظها لأهل ذلك العالم من سطو المتقدمين الأقوياء عليها ابتعاد عالمهم عن ترسم خطى حضارة الأقوياء وأخذها بالتكنولوجيا على نطاق محدود صغير ؟

✱ ✱ ✱

ان الكسندر سولجنستين ليس أيا كان . فهو من كبار كتاب العصر ، وأشهرهم . وهو رجل تحلى بقدر من الشجاعة والإيمان نادر

(٤١) « رسالة .. » ص ٢٤/٢٣ .

(٤٢) لفظة يوم نستخدمها هنا مجازا . فكل ذلك لا يحدث بين يوم وليلة ، كما هو واضح .

(٤٣) « رسالة .. » ص ٢٤ .

(٤٤) « رسالة .. » ص ٢٣ .

(٣٦) « رسالة .. » ص ٢٧ .

(٣٧) نفس المرجع ، نفس الصفحة .

(٣٨) عنوانها « The Tenderfoot and the Tramp »

وستالين من بين شخصياتها .

(٣٩) « رسالة .. » ص ٥٥/٥٤ .

(٤٠) « رسالة .. » ص ٢٢ .

د . عبد اللطيف حسن

الطيور تبكي عند نهر الخابور

وصارما يزلزل الارض اذا صال على الاعداء
فلتشهد الصحراء ان مات بها انسان

* * *

لو كان حيا لانتشت بسيفه « سيناء »
او يبرق من دمه رف على « الجولان »
اذن لكات قصة من قصص البطولة
ووجه تاريخ اضاء ساحة الرجولة
لكنه .. لكنه .. اواه ...

بكته في غربته الاعراب في البوادي
بكت عليه السحب الوفيه

بكته - اذ خلت ظهورها - عيون الخيل
بكت عليه جزعا صوارم المنيه

بكته حتى اعين الطيور
بكاه حتى شجر الخابور

وانتم .. لا احد بكاه
لا احد رثاه

عار على خزاعه
عار على نزار

يموت في الغربة موتاهم بلا قبر ولا مزار !

لندن

لو مرة سيوفكم كانت على الاعداء
لو مرة خزاعه

اثخنت الجراح في عدوها واظهرت شجاعه
هذا الذي دماؤه جرت على الرمال

شمسكم الكبيره

وهو ، اذا ذكرتم الليالي السود الحبالى ،
قمر العشيره

بماورته منكم الخناجر

صببتم نهرا من الحقد عليه ..

فوق انهار من الدماء

تركتموه جثة .. اشلاء

الشمس فوقه لظى

الرمل تحته لظى

ووجهه يشهق للسماء

* * *

وحامت النسور فوق لحمه عصاب
في اثرها عصاب

توزعته مزقا حواصل النسور

وغاب في احشائها .. كأنه ما كان

نسرا يشق جانحاه عارض السماء

المثال مكنه من الوقوف في وجه حكام احدى القوتين الاعظم في عالم
اليوم معارضا ومناقضا . وهو حاصل على جائزة نوبل . وهو مؤمن
فعلا بمجموعة من القيم الاخلاقية لا شك في اهميتها . كما انه كاتب
تبناه العالم العربي كله - لا مجرد معارضته للنظام السوفيتي - بل
لذلك ولانه - في حقيقة الامر - يجسد بفكره وانجاءاته الضموم
الفكري الاخلاقي القربي الان وغدا بأفضل مما يعبر عنه او يجسده
اشهر كتاب القرب المعاصرين .

ولقد اثارت اراء سولجنتسين التي ركزها واجملها في رسالته
الجريئة الى زعماء الاتحاد السوفيتي عاصفة من النقد والنقاش والمناظرة

بين اقرب اصدقائه وزملائه من المنشقين السوفيت انفسهم ، كعالم
الفيزياء زخاروف ، والمؤرخ ميديفيد الذي سبق ان تصدى سولجنتسين
للدفاع عنه ، وقد اتهماه كلاهما بالتعصب ، والنظرة القومية الضيقة ،
وجاءت ردود من ردوا عليه - فيما يخص مشكلتنا بالذات - كاشفة
اكثر . ولهذا فان الرجل ، واراؤه ، واعماله ، ومعارضيه ، وراء
معارضيه ووجهات نظرهم ، تستحق منا وقفة دراسة وتحليل اخرى
طويلة . فالمسألة فيما يخصنا اهم بكثير من مجرد قضية ادبية ، او
جمالية ، او فلسفية ، واعق من مجرد مشكلة اخلاقية .